مدخل إلى ابستيمولوجيا باشلار

introduction to the epistimology of bachelard

الاسم واللقب: حسين بن عبد الله
مختبر: الفينومينولوجيا وتطبيقاتها
كلية: العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة: تلمسان البلد: الجزائر
البريد الالكتروني: houbordjarima1@gmail.com
قُدم للنشر في:..... قُبل للنشر في:.....

Name & Surname: houcine benabdallah
Laboratory: phenomenology and its application
Faculty: humanities and social science University، :tlemcen . Contery:Algeria
Email:houbordjarima1@gmail.com.
Received:..... Accepted:.....

تاريخ الارسال2019-07-17	تاريخ القبول2020-02-08	تاريخ النشر 2020-04-10

-ملخص باللغة العربية:

تعتبر الابستيمولوجيا من المباحث الفلسفية الأكثر أهمية، كما يعتبر باشلار أحد روادها الأساسيين، حيث ترتكز هذه الدراسة على مناقشة وتحليل ابستيمولوجيا باشلار، وذلك من خلال عرض لاهم المبادئ التي تحتوي عليها مثل الفكر العلمي الجديد، والتحليل النفسي، والمعرفة الموضوعية....الخ، وذلك من خلال العودة الى المؤلفات الأساسية لهذا الفيلسوف وكذا بعض المراجع التي تناولت اطروحاته الفلسفية.

-كلمات مفتاحية بالعربية: الابستيمولوجيا، الفكر العلمي الجديد، المعرفة الموضوعية، التحليل النفسي، الابستيمولوجيا اللاديكارتية، الحتمية واللاحتمية

: English summary :

Epistemology is one of the most important philosophers, and Bachlar is one of its main pioneers.The study is based on the discussion and analysis of Bashler's epistemology, through the presentation of the most important principles that contain such as new scientific thought, psychological analysis, objective knowledge, etc., By going back to the basic works of this philosopher as well as some references that dealt with his philosophical theses.

Keywords:
Epistemology, new scientific thought, objective knowledge, psychoanalysis, non-discrete epistemology, determinism and determinism

-مقدمة:

يعتقد كثير من الباحثين أن اهتمام الفلاسفة بتاريخ العلوم يرجع إلى طبيعة العلاقة الوطيدة والمتداخلة بين الفلسفة والعلم، إذ أنه من العسير فهم مختلف النظريات والمذاهب الفلسفية، وإدراك دلالاتها لو اعتبرناها بمعزل عما يحيط بها من ممارسات معرفية أخرى، سواء كانت علوما أو فنونا أو غيرها. فالفلسفة كما يرى ذلك بياجي مثلا، تبنى قضاياها دوما إنطلاقا من التأمل في علوم عصرها، وتأسيس أية فلسفة يقتضي في أغلب الأحيان تهيئا علميا مسبقا، يقول بياجي: "يبدو أنه مما لا نقاش فيه أن أغلب المذاهب في تاريخ الفلسفة تصدر من تفكير إما في الاختراعات العلمية لأصحابها أنفسهم، أو في ثورة علمية خاصة حدثت في زمانهم أو قبله بقليل: كما تعلق الأمر بأفلاطون مع الرياضيات، وأرسطو مع المنطق والبيولوجيا، وديكارت مع الجبر والهندسة التحليلية، وليبنتز مع حساب اللامتناهيات، وتجريبية لوك وهيوم وتمهيدهما لعلم النفس، وكنط مع العلم النيوتوني وتعميماته، والماركسية مع التاريخ وعلم الاجتماع، إلى أن نصل إلى هوسرل مع المنطق الرمزي كما هو عند فريكه". ابستيمولوجيا باشلار هي الأخرى تعيد طرح هذه العلاقة، حيث تعتبر المعبر الرئيسي والأساسي نحو الابستيمولوجيات المعاصرة، لما اثارته من مفاهيم واشكاليات فلسفية جد مهمة. فقد استلهم باشلار الكثير من الثورات العلمية في القرن العشرين، في مجالي الفيزياء مع نظرية النسبية وفيزياء الكوانتم، وأيضا في مجال الرياضيات مع ظهور الأنساق اللا اقليدية، ان إبستيمولوجيا باشلار تعود بالتحليل الى العلاقة بين العلم والفلسفة، هذه العلاقة الأبدية والمتجددة باستمرار، تعود لتظهر مع باشلار احد اكبر الابستيمولوجيين المعاصرين.

إن منحى الإبستيمولوجيا المعاصرة كما يشير إلى ذلك باشلار منذ مدخل كتاب الفكر العلمي الجديد بأنها تتجه من العقلي إلى الواقعي وليس العكس كما كان يعتقد الفلاسفة منذ أرسطو حتى بيكون[1]، فالثورات العلمية المعاصرة خاصة في ميادين الفيزياء والرياضيات، والمتمثلة في الميكانيكا اللانيوتينية والهندسات اللاإقليدية، قد شكلت انقلابا ضخما اضطر العلماء إلى مراجعة مبادئ ومفاهيم

[1] -غاستون باشلار: الفكر العلمي الجديد، ترجمة عادل العوا، الطبعة الثانية 1983، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع لبنان، ص7

العلم الكلاسيكي، كما فرضت على المهتمين بالشأن الفلسفي إعادة النظر في مفاهيمهم، فقد كانت منعرجا حاسما على مستوى الفكر بصفة عامة، الذي كان يستقي تصوراته من العلم الكلاسيكي.

يطرح باشلار إشكالية تنوع الميتافيزيقا بالنسبة للمثقف المعاصر الذي يريد التأسيس للتفكير العلمي من خلال انتصاره لميتافيزيقا معينة، ولكنه يؤكد على أن التفكير العلمي «سيقودنا إلى أن نستبدل بضروب الميتافيزياء الحدسية المباشرة ضروبا من الميتافيزياء المنطقية الإستدلالية المصححة تصحيحا موضوعيا»[2]. فما وقعت فيه الفلسفات الكلاسيكية، هو إضفاؤها صفة الإطلاق على مبادئ الفكر الإنساني، المستخلصة في مرحلة معينة من تاريخ العلم والمعرفة، ويضيف جون بياجي بأن حتى العلوم الأخرى من رياضيات وطبيعيات وعلوم إنسانية لم تسلم من هذه النظرة، فكانت تأخذ هذه القضايا المبدئية، على أنها قضايا نهائية لا يجوز الشك فيها أو الطعن في مصداقيتها. [3]

إن الابستيمولوجيا المعاصرة ممثلة في باشلار، ستأخذ هذه المسالة بعين الإعتبار، مستندة في ذلك على معطيات الثورة العلمية المعاصرة في مجال العلوم الرياضية والفيزيائية، لأن هذه الثورة لم تمس مبادئ هذه العلوم فحسب، بل لحقت بنية الفكر الإنساني ذاته.[4] فتعدد الهندسات، وتجاوز إطلاقيه الهندسة الاقليدية التي اعتبرت نهاية مطاف الفكر الإنساني، فتحت مجالا جديدا للفكر العلمي المعاصر، حيث فرضت على الإبستيمولوجيا المعاصرة إدخال مفاهيم جديدة، فمثلا أصبح على الإبستيمولوجي أن يشرح تركيب العقل والتجربة، تركيبا متحركا إلى حد ما. [5]

لذلك فالقيم الجديدة التي تحملها الإبستيمولوجيا المعاصرة تكمن في التغير المستمر لبنية الفكر نتيجة تطور المعرفة العلمية، والقول بوجود علاقة جدلية تحكم حركة التقدم، لذلك يؤكد باشلار بأن بنية الفكر الإنساني ليست سلبية كما تشير إلى ذلك الوضعية والتجريبية، كون الفكر مجرد متلق للتأثير، ولكنها في نفس الوقت، لا تخضع لرأي الفلسفات العقلانية المثالية. هذه الأخيرة التي ترى بأن العقل بنية ثابتة، يمتلك مجموعة من الأدوات القبلية تؤهله للتفكير في الواقع. [6]

---

[2] -الفكر العلمي الجديد، المصدر نفسه، ص6

[3] -محمد عابد الجابري: تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة، مرجع سابق، ص37-38

[4]- السيد شعبان حسن: برونشفيك وباشلار، بين الفلسفة والعلم دراسة نقدية مقارنة، مرجع سابق، ص128

[5]- السيد شعبان حسن: برونشفيك وباشلار، بين الفلسفة والعلم دراسة نقدية مقارنة، مرجع سابق، ص 141-142

[6]-المرجع نفسه، ص128

ستصبح مع ذلك مهمة الإبستيمولوجيا المعاصرة البحث في أثر المعارف العلمية على تطور بنية الفكر، لكي يصبح معها تاريخ المعرفة العلمية في الوقت ذاته، تاريخ التغيرات التي لحقت الفكر الإنساني منذ أن بدأ هذا الفكر في إنتاج معرفة علمية[7].

يرفض باشلار فكرة الشيء في ذاته عند كانط، لأن معنى الشيء في ذاته هو مظهر لتقدم العلم، لا لحدود المعرفة العلمية، فمثلا نواة الذرة كانت تعتبر شيئا في ذاته بالنسبة للعلم الكلاسيكي، ولكن التقدم في العلم المعاصر بلغ ما كان يعتبر قبل ذلك الشيء في ذاته. ولكي نقف عند حدود المعرفة العلمية، يجب علينا أن نرسم الحدود النهائية التي لا تستطيع المعرفة العلمية تجاوزها، ولكن عند العودة إلى تاريخ العلم والمعرفة لا نجد مبررا لرسم هذه الحدود، لأن الإشكاليات غير القابلة للحل، ستجد حلها مع تقدم العلم والوسائل التقنية[8]. ينطلق باشلار من التأكيد على أن الفكر يسلك في بنائه للمعرفة العلمية مسالك متعثرة ودروبًا ملتوية وطرقًا غير مباشرة. فإن كانت فلسفات العلم التقليدية، في صيغتها الوضعية خاصة، تعد المعرفة العلمية امتدادًا للمعرفة العادية، حيث تكتفي بأن تنصح الدارس بـ "الإصغاء لما تقوله الطبيعة"، وتحدّد الموضوعية بأنها نفي للذاتية، بل تجعلها مقابلاً لها، فإن إبستمولوجية باشلار، تؤكد على التأويل العقلاني، فليس هنالك سوى العقل منشطا للبحث وتَدَخُّل في الطبيعة وتحويل للمعطى المباشر[9].

أما بالنسبة إلى المسار الذي يشكل العقل العلمي نفسه فإن باشلار يميز بين ثلاث مراحل: الحالة ما قبل العلمية التي تمتد من العصور القديمة الكلاسيكية حتى القرن الثامن عشر. الحالة العلمية التي بدأت بالظهور إثر ذلك وتراكمت طوال القرن التاسع عشر متواصلة حتى القرن العشرين. وأخيراً زمن الروح العلمية الجديدة التي حدّد بداياتها في العام 1905 بالتزامن مع الرجّة المفهومية التي مثلتها النظرية النسبية التي طوّرها إينشتين. إلا أن باشلار حدد لكل هذه المراحل سماتها التي تميزها:

[7] – المرجع نفسه، ص 129

[8] – السيد شعبان حسن: برونشفيك وباشلار، بين الفلسفة والعلم دراسة نقدية مقارنة، مرجع سابق، ص129-130

[9] – المرجع نفسه، ص130

1-المرحلة الأولى: هي الحالة الملموسة: حيث ينشغل العقل بالصور الأولى للظاهرة، وذلك بتمجيده للطبيعة، وإيمانه بوحدة العالم.

2-المرحلة الثانية: هي الحالة الملموسة المجردة: حيث يضيف العقل إلى التجربة الفيزيائية الأشكال الهندسية، ويستند إلى فلسفة البساطة، هنا لا يزال العقل في وضع متناقض، فهو واثق من تجريده بقدر ما يكون هذا التجريد ماثلا بوضوح في حدس " ملموس" أو "محسوس".

3-المرحلة الثالثة: هي الحالة المجردة: حيث يتدخل العقل بمعالجة المعلومات المأخوذة من الواقع، لكنها منفصلة عن التجربة المباشرة، أو بمعنى آخر يكون العقل والتجربة، في هذه المرحلة متلازمين كل منهما متمم للآخر[10].

إن السؤال الأساسي والجوهري في إبستمولوجيا باشلار هو كيف يتم الإنتقال في عملية المعرفة في مسار البحث عن الحقيقة، وما هو المنهج المتبع في تحقيق المعرفة الموضوعية، كيف يتم الإنتقال من المعرفة اللاعلمية إلى المعرفة العلمية. لا تصف المعرفة العلمية واقعًا معطًى ولا تصف "طبيعة"، بل إنها تتعامل مع "واقع" صُنْعي، فالعقل الملاحظ أو المعاين، كما يحدده هيغل غير ملائم البتة لطرح مشكل العقلانية المرتبطة بالبحث العلمي، لأن الملاحظة والإختبار أصبحا طريقين منفصلين، حيث ستغدو الملاحظة مشروعا نظريا ،يكمن في القابلية العقلية في إقصاء المظاهر الخادعة، [11] "فالواقع بالنسبة للعالم لا يتكون إلا بفضل عمليات تعديل متعاقبة، لقد بلغت المعرفة العلمية مستوى أصبحت فيه الموضوعات العلمية ما نصنعه نحن، فبدون تأسيس عقلاني للتجربة، وبدون هذه الإستعانة الدائمة ببناء عقلاني صريح تماما، سنصبح أمام لا وعي العقل العلمي. غير أن هذا اللاوعي يمكنه أن يكون مصدر للكثير من الأفكار العلمية، لأنه منبع القوة النفسانية كما يرى باشلار. فالعقل هو فاعلية نفسانية متعددة الأمور، ولا يمكن الحديث عن عقلانية التجربة، إذا لم تدخل هذه الأخيرة في صميم لعبة الأسباب

[10] – السيد شعبان حسن: برونشفيك وباشلار، بين الفلسفة والعلم دراسة نقدية مقارنة، مرجع سابق، ص126-127
[11]-المرجع نفسه، ص131

المتكاثرة. [12]غير أنه لا يجب أن ننسى أن الشرط الأول في الإبستيمولوجيا الباشلارية هو التخلي عن المفاهيم الجاهزة، فكل تجربة تضع منهج التجربة ذاته كموضوع للتجريب، لتقضي على الإستيعاب الهظمي للعقل، الذي يتم من خلال التجارب السابقة، وذلك من أجل تجديد العقل عبر الإتصال الجديد بالتجربة، لكي تتحقق قابلية العقل في اكتساب تعدد فلسفي. [13]إن العقلانية التطبيقية هي مجموعة من التجارب المتجددة، تفرض علينا اعتبار كل تجربة، حدثا «évènement» من أحداث العقل، لكي تصبح معه كل تجربة حول الواقع، تجربة حول الفكر العلمي، تتحقق على نحو استدلالي في الموضوع والذات في وقت واحد.[14] إذن كما هو ظاهر، فان أي إشكالية توضع كموضوع للمعرفة، وهي مازالت لم تتحدد، أي لم تنجز لها صيرورة التوضيح، لأنها ببساطة، لا تمتلك ماض، أن تضع نفسها في صيرورة استدلالية تثقيفية، تتحصل تدريجيا، بيد العقلانية المعلمة والعقلانية المعلمة*. فالموضوع المثقف حاليا هو أكثر تعقيدا، لأنه يتطلب تكافل بين المنهج والتجربة، ولكن يجب أولا تحديد المنهج الذي ينبغي معرفته، من أجل إدراك الموضوع في إطار المعرفة المقيمة منهجيا، الموضوع الذي من شأنه أن يحول منهج المعرفة. في العقلانية التطبيقية يتأسس الكوجيتموس (أنا-أنت)، الذي يفرض على العقل التفكير في إطار من التوافق، بين الأنا والأنت العقلانيين، والذي يبشر بخصوبة فكرية، بنفس المعنى يشير الرياضيين الى مفهوم التطابق التماثلي بين عنصري مساحة.[15] كما أنها تؤمن بالوضوح الإجرائي محل الوضوح في ذاته، وبالموضوع المبني بدل الموضوع المعطى، والحدس النتيجة بدل الحدس المنطلق، مؤكدة أن الفكر سلسلة من القطيعات والإنفصالات، وأنه دومًا مراجعة ونقد وإعادة نظر.

---

[12]- السيد شعبان حسن: برونشفيك وباشلار، بين الفلسفة والعلم دراسة نقدية مقارنة، مرجع سابق، ص131

[13]- المرجع نفسه، ص131-132

[14]-المرجع نفسه، ص132

*-العقلانية المعلمة والعقلانية المعلمة: هي نتيجة لانقسام الذات العارفة إلى الطرفين المعلمة والمعلمة حيث يؤكد باشلار أن العقلانية المعلمة تطالب بمطابقة عقل مع اخر. وهذه المطابقة التي تنبغي دراستها بعناية، ستكشف لنا جدلية بين نفسانية ولا نفسانية، مع أخد هذه الكلمة الأخيرة بالمعنى الذي به وضعنا فلسفة اللا، فهذه اللا نفسانية كأنها تعمل عمل النقد والدمج في آن واحد للنفسانية وليس فقط النقد والاقصاء. لكن لابد من التأكيد أن بين الذات المعلمة والذات المعلمة حوار تعليمي، يعيد داخل الذات الحوار بين التجريبي والعقلاني. انظر غاسطون باشلار: العقلانية التطبيقية، ص 46،45-56

[15]- السيد شعبان حسن: برونشفيك وباشلار، بين الفلسفة والعلم دراسة نقدية مقارنة، مرجع سابق، ص133-134

في كتابه القيم **"فلسفة النفي"** يسير باشلار إلى مفهوم الإبستيمولوجيا التكاملية، فالتقدم العلمي في مجال الميكروفيزياء، يشير إلى أن الأضداد ليست في حالة صراع، وإنما في حال تكامل، لتفرض هذه الحقيقة نفسها، كحقائق يجب الإعتراف بها، على الرغم من تناقضها، لأن كل منها يعكس جانبا من الحقيقة. فلسفة النفي عند باشلار هي فلسفة مفتوحة، تؤكد على تكامل جانبي التجربة والعقل، فكل حقيقة هي حقيقة مجملة وفي حالة صيرورة، لذلك فمن غير الممكن الفصل في المعرفة بين ما هو تجريبي وما هو عقلاني. [16] لذلك ترفض الإبستيمولوجيا الباشلارية المبادئ والقضايا المسلمة بها، فهي قابلة دائما للنقاش والتطوير المستمر، حيث تأخذ شكلا تاريخيا نقديا، بوصفها عملية تطور ونمو متصلة، وهي نتيجة لمعرفة سابقة.[17] المعرفة العلمية هي دومًا معرفة–ضد، لأنها دومًا تصحيح لأخطاء. بهذا المعنى سيسترجع الخطأ قوّته ووجوده الفعلي المتعنت، ولن يعود وجودًا عرضيًا، أو افتراضًا منهجيًا، وإنما سيستعيد صلابته، بل وضرورته إن صح التعبير، مادام يشكل منطلق كل معرفة علمية، إذ أن هذه المعرفة العلمية لن تعود إلا مجموعة من الأخطاء التي قد تم تصحيحها. وذلك، لأن كل تجربة موضوعية صحيحة ينبغي أن تُحدِّد دومًا كيفية تصحيح خطأ ذاتي.هذه المكانة الأنطولوجية الجديدة للخطأ، لا تغيّر تحديدنا لـ"الواقع" وفهمنا لطبيعة البحث العلمي وحدهما، وإنما تبدّل من طبيعة الفكر نفسه، وتجعله فكرًا مناضلاً و مقاومًا للأخطاء العنيدة لتصبح السمة الأساسية في الإبستيمولوجيا الباشلارية هي اهتمامها المتزايد بجوانب النقص والخطأ والفشل في حقول العلم أكثر من اهتمامها بالإيجابيات، وبهذه الطريقة تصبح الموضوعات العلمية عبارة عن مجموعة من الإنتقادات التي وجهت إلى صورتها قبل العلمية أو صورتها الحسية القديمة، فليست الذرة مثلا هي هذه الصورة التي أعطاها لها هذا العالم أو ذاك بل مجموع الإنتقادات التي وجهت إليها، أي إلى تلك الصورة من طرف العلماء والباحثين اللاحقين، فالمهم في العلم ليس الصورة الحسية المتخيلة التي يقدمها هذا العالم أو ذاك على أشياء الطبيعة، إن المهم هو الإنتقادات وأنواع الرفض التي تلاقيها هذه الصورة من طرف العلماء الاخرين.[18]فمن أهم ميزات هذه الابستيمولوجيا أنها نظرية في المعرفة غير مغلقة، فهي لا تريد أن تتقيد بنسق فلسفي مؤكد، ذلك لأنها

[16]– المرجع نفسه، ص136

[17]–المرجع نفسه، ص137

[18] محمد عابد الجابري: تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة، مرجع سابق، ص37

تتمسك بمبدأين أساسين وهما: نسبية المعرفة، ومبدأ القابلية للمراجعة. بهذا المعنى ستصبح الإبستيمولوجيا المعاصرة، الفلسفة العلمية الوحيدة التي تواكب أي تطور في حقل العلم[19].

التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية:

من جهة أخرى تسعى إبستيمولوجيا باشلار إلى الإستفادة من التحليل النفسي من أجل بلوغ أهدافها في تحليل الفكر العلمي الذي يجري حسب باشلار ضمن شروط نفسية، لتصبح إحدى المهام الأساسية للإبستيمولوجيا، القيام بتحليل نفسي للمعرفة الموضوعية[20].

يظهر مفهوم التحليل النفسي لأول مرة مع باشلار في كتابه "تشكل الفكر العلمي"، وذلك من أجل معرفة العوائق الإبستيمولوجية والمتمثلة في الأخطاء والعقد النفسية وأنماط اللاوعي التي تعرقل تطور الفكر العلمي. كما لاحظ باشلار أن التحليل النفسي كان هدفه البحث عن الدوافع والأسباب اللاشعورية التي تتحكم في الأعمال أو التصرفات الواعية من خلال فرضية وجود حياة نفسية لاشعورية تؤثر في الحياة النفسية الشعورية. لكن التحليل النفسي عند باشلار يفترض بأن الباحث العلمي أو مسيرة التفكير العلمي في حد ذاتها تعاني من مكبوتات عقلية تؤثر على البحث العلمي. [21]

باشلار لا يركز اهتمامه على تفسير أعماق اللاشعور كما يفعل التحليل النفسي الكلاسيكي الذي تولى دراسة الأساطير والميتودولوجيا، بل كما يقول باشلار في كتابه" **النار في التحليل النفسي** " :" إن من حسنات التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية الذي نقدمه هو بمنطقة أقل عمقا من المنطقة التي تبسط فيها الغرائز البدائية". [22] لذلك باشلار يعيب على التحليل النفسي التقليدي الذي ركز اهتمامه لتفسير اكتشافات ما قبل التاريخ، لأنه يراه غير ملائم لذلك، كما يعيب عليه تجاهله المتغيرات العلمية، هذه الصورة للتحليل النفسي تعكس ما يسميه باشلار بالتحليل النفسي المباشر والذي يعوضه بتحليله

[19]– السيد شعبان حسن: برونشفيك وباشلار، بين الفلسفة والعلم دراسة نقدية مقارنة، مرجع سابق، ص138

[20]– السيد شعبان حسن: برونشفيك وباشلار، بين الفلسفة والعلم دراسة نقدية مقارنة، مرجع سابق، ص145

[21] –محمد الوقيدي: فلسفة المعرفة عند غاسطون باشلار، الابستيمولوجيا الباشلارية وفعاليتها الاجرائية وحدودها الفلسفية، در الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 1980، ط1، ص76

[22] – غاستون باشلار: النار في التحليل النفسي، ترجمة نهاد خياطة، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط1،1984 ، ص15

النفسي غير المباشر، حيث يركز بحثه في اللاشعور من خلال الشعور وليس العكس، أي أن نركز على البداهة الموضوعية من أجل الكشف عن القيم الذاتية، إنه يجب البحث عن الهاجس في الخبرة وهذا ما يتضح من خلال قوله: "فالفكر عند الإنسان البدائي هو هاجس مركز والهاجس عند الإنسان الثقافي هو فكر ممتد [23].إن التقارب الكبير بين النقد الموضوعاتي والتحليل النفسي يتم من خلال تناول النقد الموضوعاتي قضية ما قبل الوعي على مستوى العلاقة بين الموضوع والهوام، يكون فيه الموضوع سيناريو خيالي فيه المتخيل حاضرا، وتصوره صورة مشوهة لتحقيق رغبة لا واعية، ومن ثم يتداخل المنهج الموضوعاتي مع التحليل النفسي، من أجل إحضار المعنى إلى الظاهرة من هنا يؤكد باشلار ضرورة وجود تحليل نفسي، يسعى إلى ملامسة اللاوعي تحت الوعي، وحلم اليقظة بين ثنايا التجربة. [24]

لقد عمل الباحثون دائما على إسقاط مجموعة من خصائص الكائن الحي على النار وبالتالي فإن دور التحليل النفسي يتمثل في الكشف عن تسرب وانفلات مجموعة من الإعتقادات الخاطئة إلى الرؤية العلمية الموضوعية. الدور الكبير الذي تلعبه النار في حياة كل واحد ثم المغالاة في إحاطتها بمنظومة مفهومية تتجاوز في أحيان كثيرة التقدير الموضوعي لكي تأخذ أبعادا أسطورية، أثر كثيرا على الدراسة العلمية. لأن الإثارة التي تحدثها النار تأخذ دائما حتى بالعقول الأكثر استقامة وصرامة، وبالتالي تشتغل داخلها النوازع والاحاسيس الشعرية وكذا أحلام اليقظة، هذه الأخيرة التي يؤكد عليها باشلار، حينما يدعو إلى تعويض دراسة الأحلام بأحلام اليقظة. إن النار المنحصرة في موقد هي المجال الأول لانبعاث أحلام اليقظة، فهي رمز للإستراحة والهناء، فهي تعطي بعدا تراجيديا للقدر الإنساني. [25] فحسب باشلار حتى العلم المعاصر مازالت لديه تصورات غير موضوعية عن النار. يمكن القول أيضا أن التحليل النفسي للنار الذي يقوم به باشلار هو موقف موضوعي لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال قدرة الذات على تجاوز الأحكام الذاتية والما قبلية التي تزرعها فينا القيم الاجتماعية والنفسية. [26] يضيف "باشلار "بأن العامل الاجتماعي قد كان له دور في ظهور الأفكار التي تؤلف المعرفة، فظاهرة النار

[23] – غاستون باشلار: النار في التحليل النفسي، مصدر سابق، ص25

[24] – سعيد بوخليط: غاسطون باشلار نحو نظرية في الادب، منشورات الاختلاف، دار الفارابي بيروت لبنان، ط،1،2011، ص120

[25] – سعيد بوخليط: غاسطون باشلار نحو نظرية في الادب، مرجع سابق، ص119،118،113

[26] – المرجع نفسه، ص115

فهمت ككائن اجتماعي أكثر مما هي كائن طبيعي " الواقع أن الوازع الاجتماعي هو الأول، أما الخبرة الطبيعية فلا تأتي إلا في المحل الثاني ومعها برهان مادي مرتجل".[27] هذا يعني بأن هذا الوازع الاجتماعي لا يسمح بتأسيس معرفة موضوعية ويثير نوعا من الغموض.

إن النار باعتبارها كائن طبيعي تعبر عن الذكاء الأبوي والذي يجب أن يتخذه الإبن كمثال له يقتدي به ويتعلم منه القيم الاجتماعية، فاللاشعور الجماعي الذي ارتبط بالنار يفسر لنا أيضا كيفية نشأة اللاشعور الشخصي، فهذه النواهي الإجتماعية تدفع الطفل إلى العصيان، فحب الاطلاع يشجع الطفل إلى تقليد والده لإشعال النار، وبالتالي يكون هناك تلاق بين الطبيعي والاجتماعي حيث يكاد الاجتماعي أن يكون هو السائد. أما في العنصر المعنون الليبيدو والمعرفة الموضوعية فإن باشلار يرى بأن الليبيدو كونه منطقة الغرائز والشهوانية يعيق التفكير العلمي، فالذات تخضع لهذه المنطقة من النفس "والشهوانية ما تكاد تشبع حتى تتجدد، إنها تبتغي الزمن، إنها هي الزمن، فهي تتعلق بكل ما يدوم فينا مباشرة أو مداورة. إن الشهوانية هي مبدأ تقويم الزمن بالذات "[28]، من هذه المنطقة يريد أن يدخل باشلار إلى تحليل المعرفة الموضوعية. إن الليبيدو هو مصدر العوائق الإبستيمولوجية لأنه يختلج التفكير العلمي وهو ما يظهر بوضوح في تاريخ العلم والمعرفة من خلال الأمثلة الكثيرة التي يضعها باشلار في هذا الفصل مثل تفسير السميائيين وعلم الخمياء والعلم الكهربائي في القرن الثامن عشر، حيث يقول: "لا يمكن الإفتكار مطولا بسر، بلغز، بمشروع وهمي، بدون إضفاء الجنس، بطريقة صماء نسبيا، على مبدئه وفصوله "[29]. مقاربة باشلار النفسية حول النار كانت ترتكز على ثلاث عقد نفسية أساسية قدمها بطريقة هزلية وهي:

عقدة بروميثوس: هي تلك الرغبة النفسية التي تحاول التمرد على السلطة الأبوية المتمثلة في منع الطفل أثناء محاولته الإقتراب منها، حيث بروميثوس طفل صغير يختلس أعواد الثقاب. إذن ينطلق تصورنا للنار من هذا المنع الاجتماعي، وبالتالي سيظهر لا وعي الفكر العلمي كإظهار آثار التجربة

[27] –غاستون باشلار: النار في التحليل النفسي، مصدر سابق، ص14

[28] – غاستون باشلار: تكوين العقل العلمي مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، ترجمة خليل أحمد خليل، الطبعة الثانية 1982، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع لبنان، ص147

[29] – المصدر نفسه، ص148

الطفولية داخل التجربة العلمية. فالبرغم من تطور الفكر العلمي البرهاني والتقني إلا أن الموضوعية العلمية مازالت تعاني، خاصة عندما يتعلق الأمر بظاهرة النار.

عقدة أومبيدوقل: حيث اختلاط غريزة الحياة بدافع الموت، فهي عقدة حقيقية تنطوي على عشق واحترام النار هي غريزة الحياة والموت، فهي توحي بالرغبة في التغيير واقتحام الزمن

عقدة نوفاليس: تلتصق باحتياج أزلي إلى اقتحام النار والتوحد بدفء الكائن المحبوب [30]

يأخذ باشلار عن التحليل النفسي فرضية اللاشعور، لينقلها من ميدانها المطبق على الحياة النفسية للشخصية، إلى ميدان العمل العلمي، فهما متقاربان إلى حد كبير، فالعمل العلمي ليس دائما وعي، مثل الحياة النفسية في اللاشعور والكبت. إن التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية لا يسعى إلى إقصاء تام للمكبوتات وإحالتها إلى عناصر عديمة التأثير، وإنما يبحث عن مدى تأثيرها على العمل العلمي، الذي يخلق لذاته وبذاته مظاهر تعطله ونكوصه، فالمكبوتات العقلية ليست شيئا يأتي من الخارج، وإنما يحدث داخل العمل العلمي وهو منبثق عنه[31]. تتم القطيعة الإبستمولوجية ضمن العقل العلمي نفسه فمثلاً الهندسات اللاإقليدية في الرياضيات والميكانيكا النسبية والكوانتا في الفيزياء هل يمكن اعتبارها امتداداً للهندسة الإقليدية والميكانيكا النيوتينية، على العكس هي نتيجة لقطيعة معرفية، أي نتيجة لقيام نظام معرفي شامل يقطع مع نظام معرفي سابق أقل شمولاً، فالهندسات اللاإقليدية تعلن عن قيام علم هندسة أكثر شمولاً، هندسة لا يمكن فهمها انطلاقاً من الهندسة الإقليدية لأنها ليست تطويراً ولا استمرارا لهذه الأخيرة بل على العكس، الهندسات اللاإقليدية تقوم على مسلمات جديدة مختلفة تماماً، على أن هذا القطع ليس تناقضاً بل احتواء، كذلك الأمر بالنسبة إلى الفيزياء النسبية التي قطعت مع الفيزياء النيوتينية وهي ليست بأي شكل من الأشكال استمراراً لها.

من جهة أخرى يرى باشلار هذه المكبوتات باعتبارها عوائق إبستمولوجيا، فعند التحليل النفسي للمعرفة العلمية، سنكشف عن المكبوتات العقلية للعمل العلمي، أي عن العوائق الإبستيمولوجية،

[30] –سعيد بوخليط: غاسطون باشلار مفاهيم النظرية الجمالية، عالم الكتب الحديث اربد الأردن، ط،2012، ص60، 61، 62.

[31]– السيد شعبان حسن: برونشفيك وباشلار، بين الفلسفة والعلم دراسة نقدية مقارنة، مرجع سابق، ص146

وذلك لنستطيع دراستها دراسة واعية، ونتمكن من تجاوزها من خلال ما يسميه باشلار القطيعة الإبستيمولوجية. حسب باشلار، القطيعة الإبستيمولوجية هي اللحظة التي يحقق فيها العلم قفزة كيفية في تطوره، لكن هذه القطيعة ليست نهائية، لأن لكل فترة في تاريخ العلم والمعرفة، مجموعة من العوائق الخاصة بها، فتاريخ العلم هو جدل بين العوائق والقطيعات. [32] إن دعاة الإستمرارية يؤكدون على الطابع المتصل للمعرفة العلمية مع المعرفة العامة، فهم يحاولون دائما إيجاد منطلقات من اللغة العادية أو العامة للغة العلمية، هذه العملية في نظر باشلار تعزز الحفاظ على العوائق الإبستيمولوجية للمعرفة العلمية[33]، هذا التصور للقطيعة الإبستيمولوجية مناقض تماما للنظرية الاستمرارية عند " مايرسون "، الذين يرى أن العقل الإنساني مستقل وغير متغير عبر كل مراحل تاريخ العلم والمعرفة، فالفكر العامي استمرارا للفكر العلمي المعاصر واستمرارا للفكر العلمي السابق له، إذ يذهب إلى القول بالإستمرارية على مستويين: المستوى الأول يقصد به الإستمرار من التفكير العامي إلى التفكير العلمي، والمستوى الثاني بين الفكر العلمي الجديد والفكر العلمي السابق له [34].ولكن ما يؤكده باشلار كرد على مايرسون هو أن العلم هو معرفة الواقع، ولكن هذه المعرفة لا تنشأ في الفكر بواسطة كشف مباشر لبنية الواقع. إن عملية المعرفة هذه هي نشاط إنساني ورابطة خاصة بين الذات والموضوع، رابطة يتحول فيها الذات إلى موضوع والعكس صحيح، فالنشاط المعرفي يغير الواقع.[35]

تظهر المكبوتات العقلية عند باشلار، كمرادف للمفاهيم العامة الشائعة، واللغة المعتادة، حيث تصبح هذه الأخيرة كعائق بالنسبة للملاحظ العلمي من أجل بلوغ المعرفة الموضوعية[36].

الإبستيمولوجيا اللاديكارتية ونقد الحتمية:

لقد تفطن غاستون باشلار إلى هذه الأزمة التي أصابت المدونة العلمية المعاصرة وتحسس صعوبة تشخيص العلل والتعرف على الأسباب وانتبه إلى تعثر محاولات الخروج من هذه المضيقات بالتعويل

[32]– السيد شعبان حسن: برونشفيك وباشلار، بين الفلسفة والعلم دراسة نقدية مقارنة، مرجع سابق، ص147

[33]– محمد الوقيدي: فلسفة المعرفة عند غاسطون باشلار، مرجع سابق، ص132-133

[34] –المرجع نفسه، ص82

[35]– محمد عابد الجابري: تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة، مرجع سابق ص43-44

[36]– السيد شعبان حسن: برونشفيك وباشلار، بين الفلسفة والعلم دراسة نقدية مقارنة، مرجع سابق، ص148-147

على اتجاه إبستيمولوجي دون آخر وبالانحياز إلى منهج فكري دون غيره «وكل مقالة في الطريقة العلمية ستكون دائما مقالة ظرف، ولن تصف بنية نهائية للفكر العلمي»[37] وهو الأمر الذي جعل باشلار يخصص له فصلا كاملا عنونه بالإبستيمولوجيا اللاديكارتية «ومن الواجب أن نسجل حركية هذه الطرائق السليمة في أساس كل علم نفس للفكر العلمي»[38]، ويتساءل غاسطون باشلار فيما إذا كانت سيكولوجية الفكر العلمي مجرد علم واع بالأصول كونه تفكير في القوانين المكتشفة من التجربة، وإمكانية تطبيق هذه القوانين من أجل اكتشاف حوادث جديدة.

إن من ميزات الإبستيمولوجيا الديكارتية البساطة والوضوح، وهي فتنة عظيمة لأنه سيصبح كل تعقد مرادف للغموض ذلك أن هذا التعقد من الصفات الأساسية للعلم المعاصر، فالمفاهيم الأساسية والواضحة تحتاج إلى مفاهيم أخرى توضحها والحدس لم يعد حدسا أوليا وإنما هو حدس مسبوق بدراسة منطقية تخضع للثنائية الأساسية «يتضح إذن أن كلامنا عن إبستيمولوجيا لا ديكارتيه لا يزعم الالحاح على إدانة نظريات الفيزياء الديكارتية، ولا على إدانة الآلية التي تظل روحها روحا ديكارتية، و إنما يزعم الإلحاح على إدانة مذهب الطبائع البسيطة المطلقة»[39] كما أنه لابد من الإشارة إلى أن بنية الفكر الموضوعي عند ديكارت غير كافية لتفسير تعقيد التجربة لأنها طريقة إرجاعيه لا استقرائية، أي أنهم يتجهون بالبداهة صوب العقل ولا يتجهون صوب التجربة ،وكأنهم يخشون نسيان العقل ، في حين أن التعقيد هو الوظيفة الحقيقية للبحث الموضوعي. فالذي يسود دوما هو التعريف الطرائقي التالي: قل لي كيف يبحثون عنك أقل لك من أنت[40].

يمضي باشلار ليبين أهمية الفكر التركيبي الذي يسري في عروق العلم الحديث والذي هو بآن واحد، أقصى حرية، وأكثر عمقاً منه في التركيب (الديكارتي). فالطريقة الديكارتية لم تراع أبدا التعقيد، فحسب باشلار تبقى هذه الطريقة مجرد تحليل وليست تركيب لأن البناء التحليلي كان يرافقه دوما وعي بالهدم وكان دائما يسعى إلى قراءة البسيط في المعقد[41] فالموضوعية هي موضوعية تدريجية تتحقق فيها بآن

[37] –غاستون باشلار: الفكر العلمي الجديد، مصدر سابق، ص139

[38] – المصدر نفسه، ص139

[39] – المصدر نفسه، ص144

[40] – غاستون باشلار: الفكر العلمي الجديد، مصدر سابق، ص142

[41]– المصدر نفسه، ص145

واحد تجربة جديدة وفكر جديد، وهذا التأمل الموضوعي يختلف عن التأمل الذاتي المتطلع بشغف إلى المعرفة الواضحة والبديهية «إنه ليس في وسعنا إلا أن نرى كيف ينبغي أن يرتكس هذا الطابع الثوري في العلم المعاصر على بنية الفكر ارتكاسا عميقا. إن للفكر بنية متحولة منذ كان للمعرفة تاريخ»[42] يستهدف هذا الكتاب "الفكر العلمي الجديد" فلسفياً، إدراك الفكر العلمي المعاصر في جدله، ومن ثم، إظهار جدته الأساسية. ولأن الفكر العلمي ينقسم انقساماً واقعياً وانقساماً وجوبياً في مجال كل فكرة وصيغة، عمد المؤلف إلى الإكثار من الفصول التي تجلو هذه القسمة الثنائية.

في الفصل المعنون الحتمية واللاحتمية. يحاول باشلار التأصيل لمفهوم الحتمية من خلال ربطه بعلم الفلك ذلك لأنه يتصف بانتظام مستمر في حركة النجوم فهي تعلم الانسان مفهوم الموضوعية المطلقة والحتمية المطلقة «ان الظاهرات الفلكية تتميز بنوع ما من سائر الظاهرات الفيزيائية، باتصافها الأعظم بالموضوعية والحتمية»[43]

ويرى باشلار أن الأصل الفلكي للحتمية هو السبب الرئيسي في إهمال دراسة الاضطرابات والشدود، هذه الأخيرة هي الدافع الأساسي في ظهور مبدأ اللا حتمية، ذلك أن الفكر المعاصر هو فكر الإضطرابات. من جهة أن حدس الأشكال البسيطة هو الذي أوحى بتصور مفهوم الحتمية ومن جهة أخرى التركيز على الأجسام الصلبة «إلا أنهم على وجه الدقة أدخلوا في دراستهم حدوس الحتمية التي تعلموها من ميكانيكا الاجسام الصلبة»[44].

لقد استلهم باشلار تصوره في نقد الحتمية من الثورة العلمية في القرن 20 خاصة نظرية النسبية عند أينشتاين في الفيزياء المعاصرة، هذه الأخيرة التي كانت بمثابة ثورة على المبادئ الميكانيكية في الفيزياء الكلاسيكية حيث لم يكن هنالك انتقال موصول عن طريق تراكم المعرفة فقط وإنما عن طريق الشك في المبادئ والبديهيات الأولى، وبذل جهد تجديد كامل من خلال ازدواج وظيفي في المبادئ البسيطة لتبيان عمل العقل من الناحية الجدلية في أبسط أشكاله وأنقاها.هذه الثنائية الأخيرة ومن منطلق بعثها اضطراباً عميقاً في تصور الواقع، مسبقة على هذا التصور قيمة ذات معنى مزدوج مختلط.كما كان أثر هذه الثورة

[42] – المصدر نفسه، ص 171 -172

[43] – المصدر نفسه، ص106

[44] – غاستون باشلار: الفكر العلمي الجديد، مصدر سابق، ص111

واضحا على النسق الفكري الناتج عنها، خاصة مفهوم الحتمية «ومن الجائز أن نضيف أن اعتقادنا بحتمية الظاهرات يستند إلى إرجاعها إلى ميكانيكا أولية مدرسية »[45]. إن القول بالحتمية يعني أن الإنسان قد استطاع السيطرة على حركة الكون في الحاضر والمستقبل كما يعني أن الكون قد تحدد تطوره اللاحق كل التحديد، ذلك أن سيكولوجية الحتمية ناتجة عن الحوادث البسيطة والمتجمدة.

كذلك تجدر الإشارة إلى أن مبدأ السببية ومبدأ الحتمية غير مترادفين، فمفهوم السببية أعم وأكثر شمولا فهي من نظام كيفي والحتمية من نظام كمي، فظاهرة تمدد الأجسام بالحرارة تعلمنا السببية ولا تبرهن على الحتمية، كما أن السببية تخضع للمقولات الأساسية للفكر الموضوعي.[46]

إن ظهور مفهوم الإحتمالات في الرياضيات هو دليل آخر على تلاشي مفهوم الحتمية حتى في القوانين الأكثر دقة، أما فيما يتعلق بالظواهر الطبيعية فهي الأخرى تؤكد عدم الإستمرار المطلق لنفس الحالة في الظاهرة، وهو ما يشير إليه على لسان ريشنباخ «إن الشروط التي يخضعها الباحثون للحساب لا تتحقق في الواقع أبدا، فمن المحال أن نلم بجميع العوامل التي تتدخل في حساب نقطة مادية»[47].

[45] – المصدر نفسه، ص109-110

[46] – المصدر نفسه، ص115

[47] – غاستون باشلار: الفكر العلمي الجديد، مصدر سابق، ص123

قائمة المصادر والمراجع

-قائمة المصادر:

-غاستون باشلار: الفكر العلمي الجديد، ترجمة عادل العوا، الطبعة الثانية 1983، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع لبنان.

- غاستون باشلار: النار في التحليل النفسي، ترجمة نهاد خياطة، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط1،1984 .

-غاستون باشلار: تكوين العقل العلمي مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، ترجمة خليل أحمد خليل، الطبعة الثانية 1982، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع لبنان.

قائمة المراجع:

-محمد الوقيدي: فلسفة المعرفة عند غاسطون باشلار، الابستيمولوجيا الباشلارية وفعاليتها الاجرائية وحدودها الفلسفية، در الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 1980، ط1.

-محمد عابد الجابري: مدخل الى فلسفة العلوم،" تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة "، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت الطبعة الخامسة 2002.

-السيد شعبان حسن: برونشفيك وباشلار، بين الفلسفة والعلم دراسة نقدية مقارنة، الطبعة الأولى 1993، دار التنوير للطباعة والنشر لبنان،

- سعيد بوخليط: غاسطون باشلار نحو نظرية في الادب، منشورات الاختلاف، دار الفارابي بيروت لبنان، ط،1،2011.

-سعيد بوخليط: غاسطون باشلار مفاهيم النظرية الجمالية، عالم الكتب الحديث اربد الأردن، ط،2012.